على هامش صدور الترجمة العربية لكتاب «الفكر الإسباني» :

الوعي الشقي الإسباني .. أسئلة الوجود وقلق المرحلة

لا شك أن قطاعات عريضة من باحثي المغرب المعاصر قد انشغلوا بالبحث وبالتنقيب في خبايا أشكال حضور صورة المغربي، أو «المورو»، بين ثنايا الكتابات الإسبانية التاريخية – والفكرية عموما – للفترة الممتدة بين القرنين 15 و20 الميلاديين.

■ أسامة الزكاري ■

لا شك أن تدافع مشاكل الجوار قد ظلت ترخي بظلالها على اهتمامات قطاعات عريضة من مثقفي ومن مفكري الضفتين المغربية والإيبيرية، لدرجة أصبح معها المغرب موضوعا متجددا بامتياز داخل الإسطوغرافيات الإسبانية الراهنة، مثلما أضحى حضور إسبانيا في تحولات التاريخ الحديث والمعاصر للمغرب أمرا مثيرا ومحوريا في العديد من الأطروحات الأكاديمية التي أنتجتها الجامعة المغربية الراهنة. وعلى الرغم من قوة هذا الحضور المتبادل، ومن ترسخ رؤى انطباعية وتنميطية ضاغطة في الاتجاهين، فالمؤكد أن التوجه نحو فهم مرجعيات المبادرة لدى هذا الطرف أو ذاك، ونحو استيعاب بنياته الفكرية وإبدالاتها التنظيرية وأنساقها التعبيرية ومواقفها السلوكية، قد ظل أمرا مكتنفا بطبقات سحيقة من الضباب ومن الاضطراب في الرؤى ومن وسوء الفهم المتبادل الذي لم يعمل إلا على تأجيج تنافر مواقف الطرفين وعلى دفعها في اتجاه المزيد من التأزم، مع استفحال تبعات الملفات العالقة بين الطرفين، مثلما هو الحال مع قضايا احتلال الثغور المغربية الشمالية وقضية الصحراء المغربية وقضايا الهجرة وحقوق الإنسان والصيد البحري...

إسبانيا: اليوتوبيا والتاريخ

وإذا كان هذا الوضع قد هيمن على مجمل المواقف المعبر عنها أو المستترة في تعاطي كل طرف مع قضايا الطرف الآخر، فالمؤكد أن الأمور قد أضحت تتخذ مسارا آخر، مع بداية انفتاح الباحثين الإسبان على الدراسات المغربية «البديلة» ومع بداية ترسخ الرؤى العلمية المتجاوزة لهلامية صورة «المورو» القاتمة ولواقع «همجية» هذا «الجار المقلق». وفي المقابل، عرفت السنوات القليلة الماضية انفتاحا رصينا للجامعة المغربية على مجال الدراسات الإسبانية المجددة، أو لنقل على «إسبانيا الأخرى»، بحمولاتها التاريخية المتميزة وبإبداعاتها الفكرية والثقافية المميزة وبتفاعلات أوجه عطائها الذهني وتأثيراته العميقة في صنع المواقف وفي رسم التوجهات السياسية الكبرى للدولة الإسبانية. وكانت النتيجة، انعقاد عدة ندوات تأملية في عدة جامعات مغربية وإنجاز أطروحات جامعية ذات صلة بالموضوع وتواتر صدور الأعمال التنقيبية المتحررة من ثقل حمولات الماضي ومشاكله المزمنة. وقبل كل ذلك، أصبح من الواضح أن قطاعات عريضة من مثقفي المغرب الراهن ومن مفكريه ومؤرخيه قد انفتحوا على رصيد المظان والمصنفات الفكرية والتصنيفية الإسبانية للقرنين الماضيين، بهدف الاقتراب من عتبات الفهم الأمثل لرصيد المنجز الفكري الذي كان له دوره في صنع قرارات الدولة ومواقفها الرسمية، مثلما كان له الدور الكبير في فهم مواقف النخب الإسبانية المعاصرة وفي تفسير تناقضات المجتمع الإسباني وفي استيعاب البنى العميقة المتحكمة في مجمل الأنساق الذهنية لإسبان اليوم ولمنظوماتهم الإبداعية والسلوكية المفسرة لهذا الموقف أو ذاك ولهذا الإجراء أو ذاك. وعلى أساس هذا المنحى، عرف مجال الترجمة نشاطا لافتا خلال السنوات القليلة الماضية، وبفضل ذلك أمكن نقل الكثير من النصوص الإبداعية والأعمال التوثيقية والكتابات الفكرية التأملية إلى مجال التداول الثقافي المغربي العربي الراهن، وأصبح الوعي متزايدا بضرورة الانكباب العلمي لتوسيع دوائر هذا التداول عبر تعزيز جهود الترجمة العربية للنصوص المؤسسة لمرجعيات الفكر والسلوك لدى إسبانيي الأمس واليوم، بعيدا عن المواقف النزوعية المغرضة وتحررا من ضغط إكراهات «العقد التاريخية» وثوابتها الجاثمة على مجمل مسارات العلاقات المغربية الإسبانية الراهنة.

كتاب ومؤلف

في إطار هذا التوجه العام، يندرج صدور الترجمة العربية لكتاب «الفكر الإسباني ومستقبل إسبانيا»، لمؤلفه أنخيل غانيبيط، وبترجمة لإدريس الجبروني، وذلك خلال منتصف السنة الجارية (2012)، في ما مجموعه 201 من الصفحات ذات الحجم المتوسط. ولقد لخص الدكتور عبد اللطيف شهبون، الذي وضع مقدمة الترجمة العربية، أهداف الإصدار الجديد عندما اختزلها في ندرة معرفة القارئ العربي بمضامين هذا الكتاب وبصاحبه، إلى جانب أهمية مضامينه في ظرفيته التي صدر فيها عند نهاية القرن 19 وكذلك في ظرفيتنا الراهنة، بالنظر لأبعاد تعقد علاقتنا بجارتنا الإسبانية وانشغالنا بطرح التساؤلات الكبرى المؤطرة لآفاق التفكير العقلاني والرصين في سبل إيجاد التسويات المتوافق حولها بخصوص قضايانا المشتركة العالقة. وعموما يمكن القول، إن الكتاب يقدم الكثير من الاجتهادات التنظيرية المنطلقة من وعي عميق بملابسات انتكاس المشروع الكولونيالي الإسباني بأمريكا اللاتينية عند نهاية القرن 19، وذلك من خلال رؤى تؤمن بضرورة بلورة فكر وحدوي كان من المفروض أن يواجه ما سماه غانيبيط بالتقسيم العبثي للدول والنزوعات الانفصالية الضيقة. وفي ذلك، استفاض المؤلف في تحليل الأنساق السياسية التي انتظمت/ وتنتظم في إطارها الدولة الإسبانية الحديثة، إلى جانب تفكيك ثوابت الذهنية الإسبانية الجماعية، والتنديد بمختلف أوجه أخطاء المغامرات العسكرية الكولونيالية الإسبانية بعالم ما وراء البحار.

لا شك أن حب أنخيل غانيبيط لوطنه، دفعه إلى بلورة رؤى فلسفية عميقة، استطاعت أن تستفز يقينيات الذاكرة الجماعية الإسبانية، وأن تعيد مساءلة يوطوبيات الدولة الإسبانية التي صنعتها أساطير مطلع العصور الحديثة مع صدور وصية إيسابيلا الشهيرة، ثم مع انفجار عقيدة الغزو والاستكشاف لجغرافيا عوالم ما وراء البحار، في أفق بلورة الفهم الإسباني المميز للظاهرة الكولونيالية الإسبانية لمرحلة العصور الحديثة والمعاصرة. وبهذه الصفة، فالمؤلف يعد باحثا متميزا، ترك بصماته على إيديولوجيا جيل 1898م بإسبانيا، بل يعتبره البعض من رواد هذا الجيل. عاش حياة مضطربة بسبب القلق الفكري الذي ظل يسكنه وجعله يحمل في داخله اكتئابا حادا ومعاناة كبيرة انتهت بانتحاره وعمره 33 عاما. وكتاب «إيديباريوم إسبانيول» (الفكر الإسباني) يعتبر أهم عمل له في مجال الفكر، وهو محاولة في التأويل التاريخي لإسبانيا ومجمل تركيبي لتحليل أسباب انحطاطها. إن خطه الفكري يتوافق في ملامحه العامة مع فكر صديقه ميغيل دي أونامونو حول تاريخ إسبانيا ومستقبلها.. حول تركيبة المجتمع الإسباني وتطلعات نخبه.. حول انتكاسة المشروع الكولونيالي وآفاق مشروع إعادة ترصيص الهوية الناظمة للوحدة الوطنية. ومن أعماله الرائدة، نذكر «غرناطة الجميلة» و«رسائل فيلاندية» و«مأساة صوفية»...

إسبانيا.. السؤال والمصير

يحتوي كتاب «الفكر الإسباني» على ثلاثة أقسام كبرى، خصص المؤلف أولاها لعرض قراءته الفلسفية والوجودية العميقة لإشكالية الانتماء المشترك لهذه الرقعة الجغرافية المعروفة على سطح الأرض تحت اسم «إسبانيا». وانتقل في القسم الثاني إلى رصد آفاق مستقبل إسبانيا في أعقاب هزائمها الكولونيالية، وخاصة عقب كارثة فقدان كوبا، وهو الرصد الذي انساب في شكل مراسلات مسترسلة بين المؤلف ورفيقه ميغيل دي أونامونو. أما القسم الثالث من الكتاب، فقد احتوى على ملحق خاص بالأعلام وبالأحداث التاريخية وبالمذاهب الفكرية والسياسية الكبرى التي اجتاحت إسبانيا خلال القرون القليلة الماضية. وفي كل هذه الأقسام المترابطة، كانت نظرة غانيبيط فاحصة ومدققة في التفاصيل وفي السياقات، متجاوزة منطق السرد الحدثي إلى مستوى التحليل والتركيب والتنظير، مما جعله يقدم متنا شيقا لا شك وأنه يعكس قلق نخب إسبانيا المعاصرة تجاه نفاعل أزماتها الهيكلية المرتبطة بإفلاس مشاريعها التوسعية وبإجهاض مسار الاندماج الوحدوي لأقاليمها ولجهاتها وبغياب رؤى هوياتية تأصيلية وباضطراب مواقفها تجاه ما كان يعتمل داخل حدودها وداخل محيطها الإقليمي والدولي الواسع. ففي معرض ما يمكن وصفه بالنقد الذاتي لمسار تكون الدولة الإسبانية، يقول المؤلف : « حسب رأيي، إن ما هو حزين في انحطاطنا ليس الانحطاط في حد ذاته، بل البلادة المتكررة التي أظهرها المسؤولون على الشؤون العامة بإسبانيا. يمكن أن نجد رجلا له مهارة في تنفيذ المهمة التي أوكلت إليه، ولكن لن نجد رجلا واحدا ينظر ويحكم على السياسة الوطنية برأي صائب، أو على الأقل برأي مركز... إن وضعيتنا لا تسمح لنا بفرض معاييرنا السياسية، وتاريخنا يتعارض مع منحنا دورا ثانويا، وخط سلوكنا السياسي الذي نهجناه في البحر المتوسط، وكذلك في أوروبا كان هو الانكماش والعزلة الإرادية...» (ص. 67 – 84).

وفي شكل قراءة تفكيكية لشروط الفعل والاندماج فوق الأرض المغربية، يقول غانيبيط مستحضرا – مرة أخرى – الحالة المغربية : «الآن وسابقا، كان العامل الفعلي والوحيد الحاضر بإفريقيا، بالإضافة إلى السكان الأصليين، هو العنصر العربي، لأنه يعيش مقعدا، له القدرة على التأقلم والتفاهم مع الجنس الأسود بشكل طبيعي أكثر من الشكل الذي يستعمله المبشرون... فالعربي مؤهل ومحكوم من طرف روح سامية، له خصائص: مساعد ومنقذ فعلي ونافع، الوحيد المؤهل للسمو بالأجناس الإفريقية دون تعنيف فطرتها وخصوصيتها الثقافية...» (ص. 149). وفي شكل مكاشفة مفتوحة أمام خيارات مستقبل إسبانيا، يقول المؤلف: «بإسبانيا يوجد فقط حلين عقلانيين للمستقبل: أن نخضع لمتطلبات الحياة الأوروبية، أو ننسحب منها تماما، وأن نعمل على تكوين مفهوم أصلي، في ترابنا الوطني، قادر على أن يدعم كفاحنا بقوة لمواجهة الأفكار العادية، لأن أفكارنا الحالية فقط تصلح لتخريبنا وإغراقنا رغم مقاومتنا الفاشلة، وأنا أرفض كل ما هو خضوع...» (ص. 144). وفي ما يشبه حالة اليأس المطلق التي أضحت تنتاب المؤلف، نقرأ ما يلي: «القوم سيهزؤون مني، ومن يدري، إذا مر قرن أو اثنين سيقال عني أني كنت رجل الدولة الوحيد في وطننا من القرنين 19 و20. افتقدت الشهرة العالمية لعدم حصولي على موارد مالية، وأتأسف ليس على الصيت الذي فقدت، وإنما لأن العمل سيظل كمشروع، كباقي المشاريع الجيدة...» (ص. 173).

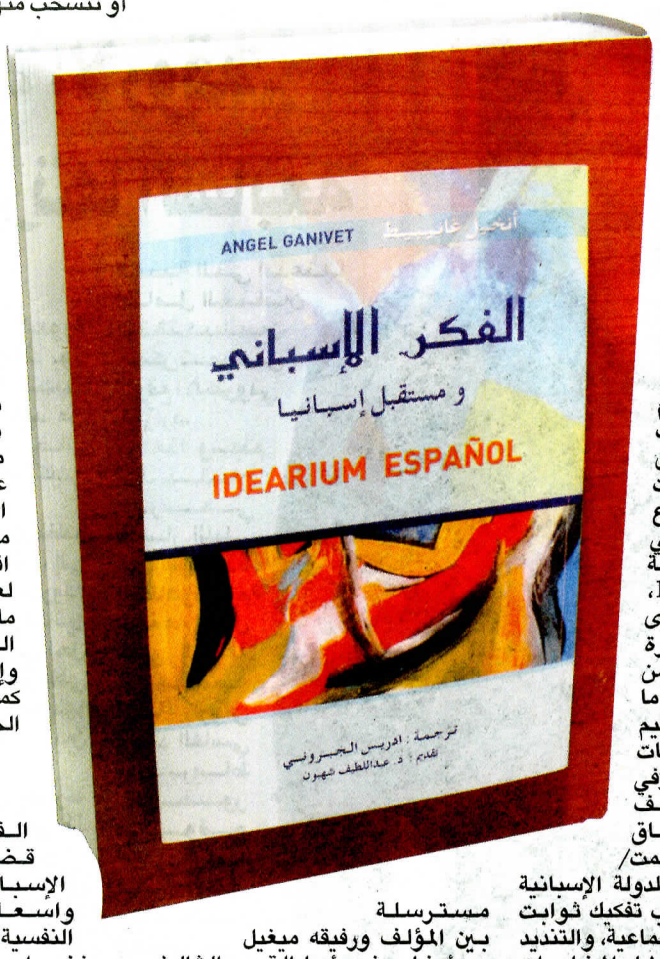

وبعد..

لا شك أن هذه الفقرات المنتقاة من قضايا كتاب «الفكر الإسباني» تتيح إمكانيات واسعة لمساءلة الجوانب النفسية والإيديولوجية لقلق نخب إسبانيا تجاه تناقضاتها الداخلية أولا، وتجاه مغامراتها الاستعمارية ثانيا، ثم تجاه أحلامها اليوطوبية ثالثا. ومن هذه الزاوية بالذات، يمكن قراءة الكتاب لاستكناه اهتمامات نخب مرحلة نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 في علاقة ذلك بتمظهرات القلق المذكور، وفي تعبيراته الذهنية المختلفة، وفي إفرازاته المواقفية التي كثيرا ما أثرت في صناع القرار بإسبانيا المعاصرة. إنها رؤية من الداخل، تسائل المسكوت عنه داخل الوعي الجمعي الإسباني، وتكتسب كل عناصر الجرأة للكشف عن ارتدادات الأزمات الهيكلية والبنيوية التي نخرت/ وتنخر جسد إسبانيا المعاصرة. وفي هذا الجانب تحديدا، تكمن قيمة العمل الذي أنجزه الأستاذ إدريس الجبروني عند تعريبه للكتاب، ففي ذلك تعميم لرؤى إسبانية عميقة تجاه ذاتها وتجاه محيطها، بما يمكن أن يساهم في فك الكثير من مغلقات طلاسم التوتر المزمن لعلاقات إسبانيا مع جيرانها، وتحديدا المغرب. وإذا أضفنا إلى ذلك، دقة الترجمة وإخلاصها لروح المتن وانفتاحها على الكثير من الإواليات المفسرة للسياقات، أمكن القول إن هذا الإصدار يعتبر إضافة نوعية لمجال حقل الدراسات الإسبانية المغربية الراهنة، وخطوة تأسيسية يمكن أن تحرر مغاربة اليوم من قبضة ثوابت الرؤى التنميطية تجاه إسبانيا الغازية، إسبانيا المنغلقة، أي إسبانيا المتآمرة، بالأمس واليوم.

> كان العامل الفعلي والوحيد الحاضر بإفريقيا، بالإضافة إلى السكان الأصليين، هو العنصر العربي، لأنه يعيش مقعدا